سيريالية

بقلم : فتحي زكي

هل يمكن ان تظل عربة تسير في طريق مزدحم بلا سائق ، ومع ذلك لا تصطدم بشيء في طريقها .. ؟

قد نرى هذا في احد افلام السينما بخدعة من الخدع .. اما ان يحدث ذلك في الواقع فذلك ما لم اكن اتصوره ابدا .. ولكنه حدث معي .

كان التعب قد صرع عقلي وازاحه جانبا من مقعد القيادة في راسي ومع ذلك لم اصطدم بشيء في طريقي .. كنت تماما اشبه بسيارة فقدت سائقها فجاة .. ولكني كنت ادرك بالغريزة أين اضع قدمي .. والى أين اتجه ..

وكانت الساعة تقترب من الواحدة صباحا وموجة الليل قد استقرت في جوفها كل ما في الكون كأنها دوامة من الرمال المطلسة التهمت ببطء كل ماحلم به وجه النهار في الميدان من حياة...

كنت غائبا عن الوعي تماما .. فان عقلي لم يستطع ان يعيد لمعركة الاسئلة الكثيرة التي احتدت بظهر عليه بعد ان خرجت من الحفلة التي اقامها زميلي القديم الفنان « عصام » بمناسبة افتتاح معرضه الجديد .. اسئلة كالسياط كانت ترجم عقلي وانا اشق طريقي بلا ادراك نحو موقف الاوتوبيس ..

وفجاة وجدت نفسي في جوف العربة .. جالسا في مقعد بجوار السائق اطل معها بنظرات تائهة .. لا شيء على وجه التحديد ..

كنت عارفا في الليل .. وكانت نظراتي الضالة تريدني عرفا فيه .. اما بدني فقد استكان في حضن لذيذ للمقعد الليني الذي جلست عليه .. وكنت احس بموجات التعب وهي تغادر بدني بعد ان جلست كما تبعث موجات الاثير .. موجات لم يكن احد يراها .. ولا انا نفسي .. ولكني كنت احس بها وهي تسلخ من جسدي المكدود ، فأحس كأني اتخفف من حمل ثقيل كاد يتصدع ظهري .. كيف استطعت أن احمل هذا الحمل الثقيل دون ان ادري .. ؟ واين كنت احمله ؟ هل يوجد في اعماق كل منا خزان كبير يتسع للمتاعب والاحزان في صمت ولكنه ينهار فجاة فيجرف كل ما امامه من السدود الاجتماعية وتسرب موجاته من نظرات العيون الذابلة .. وتتلوى الافواه الناشفة .. وترهل الحركات المتعبة ؟ ومتى يحل على كاهلي هذا الحمل ؟

اين انت يا امي ؟ اتراها قد نامت الآن ؟ بعد اسبوع تقريبا لم ارها مع انني اعيش معها في بيت واحد .. دائما اعود بالليل بعد ان تكون قد نامت .. اما في الصباح فانني اسعى جاهدا كي المراح ليس بيننا رغبة في تبادل تحية الصباح مع احد .. وما حدث بالامس حدث اليوم .. وسيحدث غدا ..

آه .. لكم انا مرهق .. ها هو الليل قد جاء .. البارد الاسود الذي ظل طوال السنين الماضية يرهبني منذ ان كنت طفلا .. في طفولتي كنت امام بالحضن امي .. كنت احتمي بالحضن من ذلك البارد .. اما الآن فان ذلك لم يعد يناسبني .. ذات يوم بعد اعوام طويلة القت بي في الحضن المضطرب وقالت لي : لقد كبرت يابني واصبحت رجلا .. عليك ان تتلم بمفردك .. وان تصحو بمفردك .. وان تسير في شارع الدنيا بمفردك ..

وبعد ذلك اليوم وانا بمفردي وسط الزحام ..

ان كثيرا من تعاليم امي عززتني من الناس .. جعلتني اعيش في نفوس مفرغ من المبادىء والافكار .. اراهم من خلال حدقاته الشفافة ولكني لا اسمع اصواتهم .. اراهم يضحكون وانا حزين .. يسخرون وانا غاضب .. يرقصون وانا متعب .. ان صلة الفهم مقطوعة بيني وبينهم ..

منذ كنت طفلا وانا احب صوت الماء .. افضله عن صوت الاكورديون المرح الذي كان زميلي معلم يجيد العزف عليه .. لا زلت افكر منطوا كان يحدث لي كل يوم وانا في المدرسة الابتدائية . كان الاطفال في الفسحة يلعبون ويقفزون في الماء .. اما انا مكنت اقف كالحكيم المفكر بجوار السور وانا اتعجب .. كيف يمكن ان تصدر كل هذه الضوضاء من هذه الحناجر الصغيرة والابدان الدقيقة ؟ وهم يمرحون ؟ وكنت اظل افكر في جواب للسؤال الخالد كل يوم حتى يدق جرس الحصة فاترك وقتئذ الحديقة بجوار السور وانا اعد نفسي ان استانف التفكير فيه في اليوم التالي وحتى الآن لم اجد جوابا له ..

آه .. اما الليلة فتعب .. متعب جدا .. وساعة الحلمة العربية التي اراها من مكاني بجوار نافذة الاوتوبيس لا تريد ان تتحرك .. ها هو ذا عقرب الدقائق الكبير بعد طول اناة يتحرك حركة عرجاء ليلتقط من عمري دقيقة .. تماما كحركة مشوهي الحرب بعد عودتهم من معركة فاشلة . هذه الدقيقة العرجاء ما اثقلها .. كم في حياتي قتلها من امثالها .. اليست هذه الدقائق المشوهة هي ما تصنع عمري ؟

لماذا لا يريد هذا السائق البليد ان يسير بالعربة .. اني اوشك على البوم .. ساحاذر ان انام حتى لا تفوتني المحطة التي اهبط فيها عادة .. كما حدث منذ بضعة ايام .. فليس معي الليلة نقود تكفي العودة الى المنزل بتاكسي .. متى تنتهي هذه الازمات المالية التي تلح علي .. ليت امي لم تقل لي ذاك اليوم .. تلك الكلمة .. لو لم تقلها لي لما اصبحت هكذا ..

لن انسى ذاك اليوم .. كان يوم الخميس .. وكم كنت احب الخميس من كل اسبوع .. كان دائما يحمل لي معه وعدا اكيدا بقرب يوم الجمعة اليوم الذي

كنت استطيع فيه النوم حتى التاسعة او العاشرة صباحا ..

ولم يكن هذا وحده هو كل ما يحببني في يوم الخميس .. فقد كان يتحلى دون ايام الاسبوع بسمة أخرى وهي التي كنت افوز بها من حصتي الرسم .. وهما احب حصص الاسبوع الى نفسي .. انني لا اعرف حتى الآن سر ذلك الشعور بالسعادة التي كانت تستولي علي في حضور الاستاذ لطفي مدرس الرسم . أكانت ترجع الى ذلك الاعجاب الشخصي الذي بيني وبينه؟ وهل كان ذلك الاعجاب يرجع الى ذوقي الشخصي لتلك المادة .. ام ان ذوقي كان يرجع الى اعجابي بالاستاذ ؟ ام ان ذلك الشعور بالسعادة كان في الحقيقة يعود الى سبب آخر وهو ان حصتي الرسم كانتا آخر حصتين يختم بهما برنامج الاسبوع لينطلق بعد ذلك مرحين عائدين الى بيوتنا .. تحمل في قلوبنا الخالية احساسا دفينا غامضا بالتخفف من عبء ثقيل رفعناه على كواهلنا الصغيرة اسبوعا كاملا .. دون ان يساورنا شك في اننا سنعاود رفعه مرة أخرى .. بل ومرات ..

لست ادري ..

كان ذلك الشعور ينتابني كل خميس .. ولكن ذلك الخميس بالذات ظل يطارد ذاكرتي طوال السنين الماضية .. وما اغرب ما يتحكم يوم واحد في مصير عمر بأكمله .. ومما اعجب ان انسى كثيرا من تفصيلات صباي .. ولا انسى تلك واحدة مما حدث ذلك اليوم .. بل ما اغرب ان يصبح عمري كله بعد ذلك امتدادا له .. بل امتدادا لواقعة واحدة حدثت ذات يوم منذ ثلاثين عاما .. واستمرارا لكلمة غامضة سمعتها عندئذ من فم امي ..

في حصة الرسم ذلك اليوم .. دخل الينا الاستاذ لطفي بتلك الابتسامة التي لم يفقدها ابدا من فوق شفتيه .. كان دائما صبوحا بشوشا . حانيا .. لاتشعر معه بما كنا نشعر به مع باقي المدرسين من فارق في العمر والعقل والسلوك .. ولم يكن صوته يتفخم في سمعي ابدا حتى يستحيل الى صوت مارد عملاق .. كباقي المدرسين .. ولكنه كان ذلك اليوم اكثر من عادته اشراقا وحبا لنا .. قرأت على وجهه بعد ذاك ما تعودت ان اقراه على وجه امي كلما رأتني .. حتى لو كان بها الف داء ..

وبعد ان تحاورنا مع استاذنا طلب الينا الاستاذ لطفي ان نرسم موضوعا نتخيل فيه بلدتنا بعد عشرين عاما .. عندما نكبر ونصبح رجالا ..

وكانت بلدتنا بلدة نوبية صغيرة ملقاة في اطراف صعيد مصر .. يمر عليها الزمن ولا يتوقف ابدا وكأنه لايمرها اذني اهتمام .. تماما كما يمر عليها ماء النيل في مجراه الطويل .. ظل يمر عليها دهورا طويلة دون ان يفعل شيئا في تقاليدها الموروثة الدائمة .. كنا لا نحس ابدا بأن للزمن علينا تأثيرا كما له على بقية البلدان ..

ولكن حادثا تاريخيا كان قد حدث لبلدتنا ذلك الاسبوع .. ولعله هو الذي جعل الاستاذ لطفي يفكر في ان يعطينا هذا الموضوع لتوسعه بأحلامنا التي لاتعرف لها حدودا .. فقد دخلت الكهرباء لاول مرة في بلدتنا .. واعتبر

الاستاذ لطفي هذا الحدث بداية تاريخ حقيقي يجب أن يؤرخ له من وجداننا بموضوع كهذا ..

ورغم اننا لم نكن قد تأثرنا بعد تأثيرا حيويا بهذا الحدث الكبير .. اذ لم تكن الكهرباء قد لمست بسحرها الا الشارع الرئيسي للبلدة .. ومبنى نقطة البوليس ولم تدخل الى بيوتنا بعد .. الا اننا وقفنا جميعا ذات ليلة من ذلك الاسبوع تحت المصباح الكهربائي في الشارع الكبير نطيل فوق الصفيح كما كنا نفعل أيام المطر .. لنرقب المصباح وهو يطلق في وجه الظلام الذي ران دهورا صرخة تفتته الى ضياء .. ويحيل الليل الى نجمة تأمره بالشروق وقتما تشاء ..

ولست ادري لماذا جعلني كلام الاستاذ لطفي عن هذا الحادث الكبير أسرح وافكر في أشياء كثيرة .. لقد قال لنا في الفصل ان الكهرباء ستغير من كل شيء في بلدتنا .. ستحيل الاسود الى ابيض .. والركود الى حركة وضياء .. وستدفع بكل ما في حياتنا الى الامام .. خطوات وخطوات ..

ولا اعرف لماذا جمح عقلي عندئذ .. وكأن الكهرباء قد بدأت هو ايضا .. فتصورت ان الانسان نفسه سيتغير .. فلا يعقل المعقول ان يتغير كل ما حولنا كما يقول الاستاذ لطفي وتظل احاسيسنا على نفس التشكل والهيئة التي خلقنا بها .. وخلق بها أجدادنا من قبلنا .. ولم يكونوا يعرفون الكهرباء ..

انني اضحك الان عندما اتذكر تلك الفكرة الجنونية التي استولت علي .. لقد تصورت ان اتلايا خطيرا سيحدث في جسم الانسان .. وهكذا رسمت الموضوع المطلوب وقد اصبحت على الانسان دراهين آخرين .. وهي ثالثة في الجبهة .. ورابعة في مؤخرة الراس .. كي يسمو الى احتياجات عصر الكهرباء .. وكل هذه الاعضاء الاضافية في حركة دائبة تشبه موتور ميكانيكي لجسمه ساحر .. اسمه الكهرباء ..

ولكني اكتشفت انني لم افعل ذلك وحدي .. بل ان زميلي عصام قد شط به مثله شططا مماثلا فجعل من الانسان مجرد رأس كبير .. كبير العيون .. واختزل باقي اعضاء الجسم الى .. تقريبا لاشيء ..

وكان الاستاذ لطفي يحتفي برسومي انا وعصام اكثر من احتفائه بمقية رسوم التلاميذ الاخرين .. لذلك ملأ خيبة امله التي ظهرت على ملامح وجهه وهو ينظر الى رسومنا ذلك اليوم لا زالت مرتسمة في مخيلتي حتى الان ..

لقد عصب مني ومن عصام .. بل لقد اوشك أن يصفق على معلمنا .. ولاول مرة تحز الابتسامة من على شفتيه صريحة .. ماذا معلمنا حتى تسبب له هذا الضيق .. بل كل هذا الحزن .. كنت اظنه سيمرح بذكائي ومنطقي .. الم يطلب منا ان نطلق لخيالاتنا العنان؟ وماذا فعلنا غير ذلك ؟

والحق .. انني حاولت وانا اقرأ ما على وجهه من اشمئزاز .. ان اعتذر عن ذنب ارتكبته دون وعي مني فقلت كنت احب الاستاذ لطفي .. وما كنت اطيق بعده هذا الشعور مني .. ومن معلمه .. ولكنه نظر الي نظرة طويلة يفوح منه اليأس وكأنه يقول انه لم يرع ملكتي العبقرية طوال السنوات الاربع

المناسبة حتى اصل الى هذا الدرك الذى انحدرت اليه ذلك اليوم .. او كانه يريد ان يؤكد لى انه سيكون اول التعساء لو صح ان الكهرباء والعلم والتطور ستحول الانسان الى هذا المسخ الذى صورته فى لوحتى.. لو ان هذا هو ما سينحط اليه الانسان فى العشرين سنة القادمة .. فانه على استعداد ان يقود مظاهرة تعوامها شعب البلدة كلها لتحطيم المحطة الكهربائية الجديدة .. رغم ان فرحة الناس بها لم تزل ماثلة ..

وحزنت .. لا لانى خيبت امل الاستاذ فى ابرع تلاميذه .. بل لانى تسببت له فى ذلك الحزن ..

وفى البيت .. كان حزن الاستاذ لطفى قد وجد له فى قلبى الصغير مسكنا .. ورأتنى امى لاول مرة مقطب الجبين وقد التصقت بوجهى تكشيرة مقصنة .. ولم احس بدامع للاجابة على وساوسها .. كانت كلما سألتنى عما بى .. امعن فى الصمت وكان حزن الاستاذ لطفى قد سلب منى لسانى .. وارتابت امى .. هل انا مريض ؟ .. هل عاد الى ذلك الالم الذى سكن امعائى واستقر منذ ان اصبت بالسعود ؟ ام ان احد المدرسين قد جرحنى بكلمة ؟ واحتضنتنى .. قبلتنى .. وصمتنى فوق حجرها لاخر مرة .. نعم كانت تلك آخر مرة تفعل فيها ذلك وهى تمطرنى بحنانها ..

واخيرا .. ودون ان افتح فمى اخرجت لها كراسة الرسم .. كنت اتمنى فى اعماقى تلك اللحظة الا ترى فى رسمى ما رآه الاستاذ لطفى .. كنت اريدها ان تنقذنى من احساس بأنى المسبب حقا فى حزن استاذى الحبيب .. بل ان تؤكد لى انى لست سببا فى صيحته اليوم ..

ولكن .. لن انسى ما ارتسم على وجهها من ذعر وهى ترمق الرسم وقد امتلأت عيناها سخطا .. انى اذكر كيف ابعدتنى عن حضنها تلك اللحظة وقد انطلقت من عينيها شرارة الغضب .. بل انى لازلت اذكر كيف وقعت قبلتى وقد استحالت كبارد صلاق وهى تقول بصوت غير صوتها الرقيق.. مادا فعلت يا ولد ؟ .. هل تظن نفسك طفلا حتى الآن ؟ لقد كبرت يا بنى .. ويجب ان تفكر فى كل ما تعمل .. من الان .. ما هذا الكلام الفارغ .. فكر .. فكر .. فكر .. يجب ان تفكر ..

ومنذ ذلك اليوم وانا افكر .. كى اعود الى احضانها .. ولكى تعود الى الاستاذ لطفى ابتسامته ..

اما عصام .. فقد عرفت ان امه لم تعنفه ذلك اليوم كابى .. لم تقل له فكر .. وبرت سنوات .. واصبح هو الان صنما يعرفه الجميع.. وتملأ اخباره الصحف .. ولا يعود فى الهزيع الاخير من الليل البارد فى الاوتوبيس ..

اما انا .. فماذا صنعت بى نصيحة امى ؟ كيف يمكن ان تتحكم كلمة واحدة سمعتها من فمها الغاضب ذات يوم فى عمر بأكمله ؟ ما اعجب النفس .. منذ ذلك اليوم وانا افكر .. واضع من الفكر وحده ناقوسا كبيرا يعزلنى فى مراعه عن الناس جميعا .. كيف مرت كل هذه السنوات دون ان اشعر بها.. هل كنت خلالها نائما فى الناقوس .. وهل حقا لا تكون الحقيقة الا اذا شعرنا بها .. ان هاتفا فى نفسى يقول

لى الآن .. ان الثلاثين عاما التى مرت منذ ذلك الخميس حقيقة .. حتى لو لم اشعر بهـا .. تلقى اليوم فى الاربعين ..

اليوم قابلت عصام .. ذهبت اليه فى معرضه الجديد .. رأيت عنده مجموعة من خيرة النقاد .. وفكرت طويلا وانا امعن النظر فى لوحاته .. فلم افهم منها شيئا .. ولكنى اعجبت عن اداء رأى عندما طلب الى ذلك منذ كان من حوله يطرونه باحسن المديح .. ويغدقون عليه عبارات متحذلقة ملتوية لم افهمها كذلك .. فلى بينها وبين لوحاته شبها كبيرا ، بل رأيت عنده حلوة هى مشروع ناجح لسيدة مجتمع تقبله دون خجل .. كاحسن طريقة تمتلكها ..

والحق .. انى خرجت من معرض عصام بثقل النفس بالكثير .. ظللت أسير فى الشوارع بلا هدف وكأننى كنت أريد من الظلام أن يطمس معالم الثورة التى بدأت تنشب فى اعماقى .. والتى اراحت عقلى حقا من ثقل القيادة فى رأسى ..

تذكرت ذلك الخميس .. لا زال عصام يرسم ما رسمه ذلك اليوم .. الانسان بثلاثة عيون .. وخمسة اذرع .. ومجرد رأس بملاء عقل كبير ..

ولكن هذا لم يحدث .. لقد أملت علينا هذا الخاطر احلامنا الطامحة ومعى شعار .. ولكن الواقع الآن بعد ان مرت السنوات الطويلة يؤكد انها لم تكن الا اضغاث احلام لم تتحقق .. فلم تفعل الكهرباء ولا الذرة ما كنا نتوقعه .. فلماذا يصر عصام على هذا ؟ لماذا يصرون جميعا على ان هذا هو فن الاتصال العصرى .. وان فى استطاعتى ليس الا ترهات رجعية تتشبث بمفاهيم علينا ان نبذه ..

وطوال سيرى فى الطرقات منذ ان خرجت من المعرض .. وانا اسائل نفسى .. لماذا .. وصورة امى العاصفة تتخابط فى ذهنى بأحزان الاستاذ لطفى ذلك الخميس .. وبأحزان العقل الذى حكم على به طوال سنوات الناقوس ..

هذا سيكتب النقاد ليشيدوا بفن عصام .. سيرفعونه فوق ما رفعته الفتاة الحلوة فى نظرى .. سيرشحونه للجائزة .. سيبتاعون بارسال لوحاته لتعرض فى اوربا .. وسأظل انا .. كما انا .. مجرد صوت معزول عن الناس بفراغ ..

وفجأة وجدت نفسى تتمرد على سجنها .. الى متى اظل هكذا ؟ .. لماذا لا اكون مثله ؟ هل انا سعيد بالنوم داخل الناقوس .. لقد رسمت ذات يوم منذ اعوام طويلة كما رسم عصام .. فلماذا لا استرد العهد واعود لابدأ حيث انتهيت منذ ثلاثين عاما .. هل انا راض عما انا فيه ؟ .. هل انى راضية ؟ وما الذى حققته بهذا الزمن الصارم الذى فرضته على نفسى ؟ ماذا فعلت بلوحاتى التى انهكت نفسى فى خلقها وهى ملقاة فى حجرة مظلمة ساكنة كالموت بلا اكفان ..

بالامس ذهبت لابيع احدى لوحاتى .. ولكن صاحب المعرض نظر الى والى لوحتى ثم انصرف عنى .. كان من الواضح انه يريد ان يتخلص منى .. ونظرت حولى فى معرضه فلم أجد صدى للوحتى بين المعروضات جميعا ..

واحسست وانا اقف في المكان كانني امت الى عالم آخر .. تفصله عن هذا العالم المحيط بي اميال واميال .. فقد كانت كل الوجوه المعروضة من مداخل نمية لا أومن بها ..

وخرجت من المعرض لادهب الى معرض آخر .. وفي كل مرة كنت احاول نفس الحقيقة المؤلمة .. وهي انني اصبحت كالنغم الماثر .. واخيرا قال لي صاحب احد المعارض : اذا اردت ان تبتاع منك لوحة .. عليك ان ترسم كالآخرين .

لماذا لا اخرج من الناقوس ليلتف حولي النقاد .. ولتقتلني متاة حلوة بقبلة كتلك التي رأيتها في معرض عسلم ولا اضطر للرجوع الى المنزل في الليل البارد في عربة أوتوبيس كسولة تتسكع بالوقوف مرة كل مائة متر .. ثم يجب .. وعندما افتتح معرضا .. ويكتب النقاد على انني عبقري من ابناء هذا الجيل .. ستعرف امي .. وسيدرك الاستاذ لطفي انهما قد طلباني .. وانني كنت ضحيتهما ..

وامتلأت من اغفاءة النوم التي اغرقني — رغما عن تحذيري لنفسي — والعربة تصج بالضحكات .. كنا قد قاربنا من باب الحديد .. ونفضت عن شعوري رذاذ النوم كما تنفض البطة الخارجة من الماء ريشها لتدفعه كنت اريد ان اعرف سر ضحكهم الصاخب .. ولكني لم افهم شيئا .. كنت لازلت مسجونا في الناقوس .. حيث تعودت ان اراهم يضحكون وانا حزين .. ويرقصون وانا متعب .. ويسخرون وانا غاضب .. وكنت انسى الامر كله لولا ان الضحكات ضيقت على الخناق وحاصرتني من كل اتجاه

وبصعوبة استطاعت اذناي ان تلتقط من بين ضجيج الضحكات صوت طفل في العاشرة .. تماما كما تلتقط ابرة رفيعة من بين جوال من القش .. كان الطفل يقف في وسط العربة يلقي عليهم اغنية مرحة وهو يرقص بمتعلا طربا .. او كبدائه اول المتأثرين باغنيته بين الساهمين .. كنت ابحث جاهدا بعد ان سمعت كلمات الاغنية عن سر تلك الضحكات المجنونة .. ولكني لم اجد .. وتذكرت لوحات معرضي ونظرت الى الطفل متعجبا على احد من حضره ما يبرر هذه الضحكات بعد ان عجزت كلمات اغنيته ان تفسرها لي .. كان مجرد طفل يحاول ان يقلد مطربا كبيرا مشهورا بمواويله وهو يرتدي قميصا احمر تربله خطوط متقاطعة .. وسروالا قصيرا .. ويرسم على شفتيه متعمدا اسلامهي اشبه ما تكون بحركة راقصة المولد التي تكشف عن سيقانها متعمدة لتمتص من نظرات جمهورها وتشجعهم رقصها القبيح .. ولم اجد في شكله ايضا تعليلا .. وشعرت بالنفور من الطفل .. كان في وجهه شيء يعشي .. كان يحاول التشبه بالرجال في حركاته وردوده على مداعبات الناس الساخرة. كان يحاول ان يتذكر لطفولته .. ايها الطفل الغبي لماذا تتعجل الزمن .. غدا تصبح رجلا وتندم على ما تنفر منه الآن ..

وكلما قال مقطعا من اغنيته .. انفجرت الاعلم في الصدور .. العلم كنت احس انني هدف لها كانوا يريدون قتلي .. فقد كانت الامواه المتعددة من حولي .. آلاف الامواه .. تفتح في ثانية واحدة لتصوب نحو وجهي العابس .. الذي صنعوا منه قناع مني .. آلاف

الناس كانوا منصتين في الصحات وكانهم لا يستمتعون بالنكات بقدر ما يستمتعون بمصارعتي .. حتى مسوتور المربة ورجاح نوادها ومتاعبدها كانت شاركت في الضحيج وكانها تضحك هي الاخرى مني ..

واحسست بدوار شديد .. كل الضحكات استحالت من حولي الى بحر هائج الامواج .. لمواج تهدأ لحظة لتثور من جديد كلما القى الطفل المرد من عمه كلمة .. وتمنيت الامواج بعيدا عن حاضر المربة .. الى ميدان واسع رهيب .. مظلم .. هواؤه ثلج .. وارضه نار .. يزدحم بالاف الامواه التي تتدح ضحكاتها شررا في الظلام المهرج يقف بينهم وهو يمسك بعصه السحرية تقدهم عقولهم ..

واحتبست انفاسي .. كنت في اعماقي غريقا اوشك على الموت .. ولكني كنت احاول ان اطفو فوق الموت ..

واخيرا انقطعت القشة .. وكان صوت طفل آخر في مثل عمر الطفل المغني .. ولكنه ليس مثله في اي شيء آخر .. كان يجلس وراء مقعدي في الدرجة الثانية وقد ارتدى جبة وعمامة وتمطئا واخذ يقرأ بصوته الرفيع آيات من القرآن الكريم .. وعجبت من نفسي .. كيف لم اسمع صوته الا الآن فقط مع انه يقرأ القرآن منذ ان بدأ الطفل الآخر بقفة سخافاته .. واوشك صوته ان يضيع مرة اخرى فقد انتهى الطفل من اغنيته وبدأ في الغناء بعض النكات .. والمستمعون يشاركون معه في الضحكات والقهقهات ..

ولكن اذني تمسكتا بصوته كما يتمسك الغريق بالقشة .. واستدرت براسي لاتأمله .. كان طفلا صغير الوجه يرتدي عمامة كاشة اللون وجبة صغيرة لم اشك عندما رأيتها في انها لم تكن في الاصل جبة .. وكانت ملامح وجهه المسكينة تحاول جاهدة مع يده اليمنى التي الصقها بخده كمادة الشفاء ان تتسق مع خدمات صوته المحقق وهو يدعم الآيات بخشوع ..

واحسست بالاشفاق على الشيخ الصغير .. فقد كان يحاول كلما ارتفع ضجيج الضحكات ان يرفع صوته ليسمه الناس ان احد نفسه يتكلم اليهم بصوته ملا يقلع الا في ان يجعل عروق رقبته الدقيقة تبدو حتى توشك ان تنفجر ..

كان الجالسون حوله في الدرجة الثانية يستمعون الى القرآن بلا انتباه ويضحكون على نكات الطفل الآخر بكل حماستهم المتبقية حتى الساعة الواحدة والنصف صباحا .. وكان الشيخ الصغير كلما تهشم صوته الرقيق في ضجيج الضحكات الشريرة يحس بالنار تاكل قلبه .. نار هي مزيد من الحقد على الطفل الآخر والحزن على حاله والحيرة على القرآن الكريم .. فتدفعه النار الى القسوة على من حوله فآيات يذكرهم فيها بالعذاب الاليم وعقاب الآخرة والنار ونفس القرار .. وتغير عروق رقبته اكثر فاكثر .. وكلما امعن في القسوة عليهم ضحكت ضحكاتهم على نكات الطفل الآخر وكانهم يحتمون في الضحكات الجوفاء مما تثيره كلمات الشيخ في قلوبهم من خوف ..

والحق انني ازددت عرقا .. ظللت لبضع دقائق استمع لاعنف معركة بين طفلين كل منهما يحاول ان يكسب الناس

الى جانبه بالطريقة التى يتقنهـا .. وظلت الآيات والنكات تتصـارع حول الآذان لتشق طريقها الى القلوب .

ومن الطبيعى انى اشفقت لحـال الطفل الصغير .. كان هناك شىء غامض يربطنى بهاتـه التى لم يفلح وقـار الجبة والعمامة فى اخفائها .. فقـد كان من الواضـح .. بعد ان طالت المرحة بالتصفيق للطفل الآخر .. انه قد هرم .. وان آياته لم تعـد فى المعركة .. فقد حولها الآذان وفصلت عليها تكات سـخمة .. وحالت اللحظة الحاسمة ..

اخرج المهرج الصغير منديلا احمر من جيبه غطى به كفه الايمن واخذ يدور على الجالسين طالبا لثمن المتعة المختومة التى اغرتهم بها .. ولم يكف مع هـذا عن نشر تعليقاته المرحة كلما راى واحدا من الجالسين يشيح بوجهه عبر المائدة ليهرب من دفع ثمن الضحكات ..

ولا يملك الرجل الا ان يبتسم وقـد صحت المرحة بالضحك من محاولة هربه التى كشفها المهرج الصغير بذكاء اكتسبه بالتجربة مع امثاله ..

يضـحكون .. ثم يحاولون عليه بالثمن .. وما تبقى القرش بالنسبة لما تمنح به كل منهم من مرح وللابتسـامة التى انتصبت بوجهه والتى بعد دقائق سيقابل بها زوجته بدلا من التكشـيرة الجامدة التى كانت تشوه ملامحه قبل دقائق والتى سـبب احيانا بعض حالات الطلاق .. ويضحك الناس مرة اخرى .. انهم يتمسكون بقبول المرح بعد ان اوشك على الاختفاء ..

ولا يحرؤ واحد على التهـرب من الدفع للطفل الماكر .. فانه يعرف كل من اضحكهم واحدا واحدا .. ولم يسـمح لاى منهم بالضحك عليه ..

اما انا .. فلم يحاول ان يقف عندى عندما حانت خطواته بمجلسي ولكنه لم يمنح رحمة جامدة اسـتعدت به ليقلد تكشيرة وجهى .. والحـق .. انه استطاع عندئذ بمنتهى ان يدفعنى الى الابتسام .. فقد كان ماهرا فى التقليد لدرجة اسـتحال معهـا الاصل الى صورة ..

ولكنى سريعا ما عدت الى صـوابى وكانني اكثـر من نفسه الابتسـام فقد تذكرت الشيخ الصغير .. كان يمر بين الناس بجسده الضئيل واطـراف جبته تعلق جوانب المقاعد .. وكأنها تشـاركه فى الاستجداء .. اما يده الصريرة فكانت ترتد دائما اليه خالية .. ينقلهـا نوع مرير من الخجل كنت احسه من رعشتها عندما اقتـرب من مجلسي .. ولم يفلح بمظهره الضئيل ولا بسعاله المدوح فى ان يبعث الشفقة فى قلوب المتضمين .. كان يقف امام كل مقعد ويمد يده المرتعدة حتى يقربهـا لعيون الجالسين الذين تصنعوا جميعا التعاس مجـاة .. ثم يشمع كل ذلك بكلمات رتيبة هامسة فيها دعاء للناس ودعاء قد من اجلهـم .. ويمثـل كل ذلك فى تحريك عواطفهم نحوه .. تماما كما مثلت آياته فى المعاد الى آذانهم .. وكلمـا تعدى صفا من الجالسين ازدادت ملامحه شقاء .. وكأنه يقترب من مصير مرعوب بات محتوما ..

واخيرا اقترب منى .. كانت اتعاس الطفل بلهت وكأنه قد ركض صاعدا جبلا عاليا والخسوف من المصـير المحتوم يضاعف احساسه بالتعب .. وعندما

رأى نظرتى الساهمة المشفقة وحدته يتمسك بى كآخر محاولة للخلاص من الفشل .. فان هذه آخر عربة .. ولن يستطيع ان يكرر المحاولة فى عربة اخرى .. اما انا فلم استمع الى كلماته الواهية وهو يحاول معى ان يسحب ميدا مثل فيه مع صبرى .. وما كادت حاجتى الى كلماته .. كنت احيل النظر بين ملامحه وقد لطختها احساس طاغ بالذل .. وبين ملامح الطفل الآخر وكان قد اقترب من الباب بعد ان انتهى من جولته الطافرة فى العربة .. واستغرقتنى المقارنة المؤلمة ..

وكانت بقايا موجات الحزن التى احتفظ بها فى ذاتى رغم انهيار سد المقاومة فى اعماقى قد بدأت تفيض .. لقد حسم الطفل المثال امامى كل ما احمله فوق كتفى من حمل الثمانية .. ولم يبالونى شيئا وانا انظر اليه ساهما مشفقا امنى انظر الى صورة لاحزانى مجسمة .. فى شكل طفل شقى دمعه اعصار بارد الى احراش غابة تحتكرها الذئاب والاسود فى ليلة دامسة الظلمة ليبحث عن ندى لمه .

ولولا بقية من الاتزان والخوف من اعتبارات اجتماعية عبية .. لمهضت من مقعدى لاحتضن امام الطفل الباكى متقدما عدامه واشترك معه فى تحمله .. او على على الاقل لاقبل وجنتيه المبللة بأزكى دموع رايتها .. لعلنى بذلك امسح على ضحكات القطيع الشرس .. ولكنى لم استطع .. كنت احلف ان اثير بذلك موجة اخرى من الضحكات ذات الانياب .

كل ما استطعته انى وضعت يدى فى جيبى لاخرج له بعض النقود وانا اتمنى ان احتو بذلك على الم احسست ان الطفل قد ورثه يوم ولد .

عندئذ هدأت امامى الشيخ الصغير ولمحت فى نظراته لاول مرة بريقا من طفولة مسجونة لم تجد طوال يوم باكمله فرصة للانطلاق .. وقبل ان اخرج يدى بالنقود كان الطفل الآخر قد اسقى من حياته تماما .. وعندما هم بمغادرة العربة رايته يرمق الشيخ الصغير باشتياق مختلط لم يتقبله .. ولكنى سمعته يقول له بصوته الطفولى ..

— مش تقول لك يا شيخ محمد .. هو ده وقته .. والله لو ترقص العمسة تمشى ..

ولست ادرى لماذا جمع حياتى بعد ذلك سريعا وانا انظر الى الشيخ محمد اتصوره كما اتصور الطفل المهرج .. وهى أقل من ثانية اخرجته من ثقوبه الذى فيه عمسه عن الاخرين وانقلب امامى منها خلع الجبة والقفطان وارتدى بدلا منها سروالا قصيرا وقميصا ترسم خطوط ملونه متقاطعة .. واستبدل العمة الحالكة اللون بطربوش صاخب ووضع على شفتيه نفس الابتسامة التى تشمه حركة راقصة المولد التى تكشف عن ساقها لتدمى الناس رقصها القبيح .. ثم احد يقلد الطفل الآخر الذى كان يضحك بعد دقائق من كل ما كان يؤتيه من حركات .. واقوال وتعليقات .. من وسعه يعنى بنفس الطريقة المثيرة ولكن احدا لم يضحك .. غريبة .. ما معنى هذا .. لماذا لا يضحكون ..

اليس هذا هو بالضبط ما أضحكهم منذ قليل .. ما الفرق .. ام تراهم يتآمرون على الطفل المسكين .. ويصرون على دفعه نحو مصيره المحتوم رغم تنازله هو عن الكثير من كرامته من اجلهـــم رغم خروجه من ناقوسه القديم .. اهو قدر محتوم حقا .. ما معنى تعليقات الناس التى اسمعها .. انهم يستقبحون غنائه مع ان صوته ــ اقسم الله العظيم ــ أعذب من صوت الطفل الآخر . واتسى من هذه التعليقـات تعبيرات وجوههم الثلجية الميتة التى كانوا يستقبلون بها غناءه وكانهم يستحقونه سخطا ..

والحق .. انى اشفقت على محمد وهو يقوم فى خاطرى بدور المهـــرج المثل .. اكثر مما اشفقت عليه وهو يقوم بدور المقـــرىء التعس فى الواقع منذ قليل ..

ولم يردنى الى الادراك .. ويرد الى محمد قطعاته وعمامته..الا تلك العطرة التى رأيته يرمق بها المهرج الصغير ردا على تعـــليقته المرذولة .. كانت نظرة مرة قاسية يلمع فيها اصرار غريب رغم كل ما حدث .. نظرة كانت تترجم الكثير مما فى قلب الشيخ الصـــغير من مرارة وبطولة .. وكأنه يريد ان يقول للمهرج باختصار ..

ــ انا اعمل زيك..اعود بالله .. ده الموت احسن ..

ولكنه لم يقل شـــيئا من هذا .. بل امسك القطر فى الجالســين جميعا وكأنه يصق عليهم من عليه كل ماكان يختفن فى قلبه من احتقـــار .. للمكرة الذين يفضلون الهزل على كلام الله ..

واقسم انى سمعت لنظرته تلك صدى زلزل الوجود من حولى .. ولكن احدا غيرى من المكتظين فى العربة لم يسمع شيئا .. لقد ضاعت صيحة الطفل فى طريقها اليهم وتناثرت هباء كما تناثرت كل مجهوداته السابقة فى ان يصل الى قلوبهم .. لم تصل الا الى قلبى انا ..

وانا .. من اكون .. مجرد شـــيخ آخر .. فصلنى عن الشيخ الصغير عدة اعوام ســـبقته فيهـــا الى النوم فى الناقوس .. نفس الناقوس الذى ينام هو فيه .. مع فارق وحيد هو انى كنت الليلة قد بلغت من القدرة على هـــذه الرقدة ومن الضعف حدا اوشـــكت معه ان احطمه لاخرج من اعلاله .. ولكنـــه هو .. الطفل الصغير الصلب كان يجد فى الخـــروج منه دما اهون منه ان يموت ..

ودعت الطفل وهو يهبط .. والعربة تســير .. بنظرة اودعت فيهـــا بعض شكرى .. اما شكرى الحقيقى له فما كنت اســتطيع ان احمـــله نظرة حائرة احتضرها فجاة فيلم الاوتوبيس لمواصل رحلته فى قاع الليل ..

وتذكرت امى .. وكلمتها التى قالتها لى منذ ثلاثين عاما .. وحين الاســـتاذ لطفى وكلمة الشـــيخ الطفل التى لولاها لاصبحت هذا مجرد مهرج يســـتجدى اعجاب الناس .. ملا يستحون عليه الا بالصور والمثل ..

امى .. هل سرقك النوم .. لم انسى سأعود الى البيت لاحدثك لازلت بقطن.. امى كم انا فى احتياج اليك الليلة .. لاواصل البقاء فى الناقوس ..